الباحثون العرب كانوا مجرد ناقلين لما كتبه الغربيون عن هذه المدينة

• اسطورة

السكاني فيها منذ قديم الزمان وحتى الآن قد ساهم في طمس أطلال مدينة «جرّة» التي أضم رأيي إلى رأي كل من قال انها لا زالت مدفونة تحت أراضي هذه الواحة وبساتينها من الباحثين الغربيين والعرب وان كنت أجزم - عكسهم - برأيي أنّ مدينة «جرّة» هي مدينة هجر ذات الشهرة المدوية في تاريخ الجزيرة العربية قبل الاسلام وبعده والتي أرى جازماً أنها كانت تقع بالقرب من الجبل الشهير الآن باسم جبل القارة وقديماً باسم جبل الشبعان وبتحديد أكثر أقول أنها كانت تقع في الركن الشمالي الغربي من هذا الجبل على دكة صخرية مستطيلة تقع للغرب من بوابة مغارة عجيبة الشكل والتكوين تعرف بمغارة العيد لا يشك كل من شاهدها أنّ يد الانسان قد لعبت دوراً كبيراً في تهذيبها وتهيئتها لتكون أشبه بمجلس الحكم الذي يجلس فيه الحاكم ويستقبل أفراد رعيته فيه ويصرّف أمور دولته منه.

والذي جعلني أهتدي إلى اكتشاف موقع مدينة هجر قرب جبل الشبعان «القارة» هو نصّان متباعدان في الزمن ومتفقان على الحدث أولهما هو نصّ المسعودي الذي أورده في كتابه التنبيه والاشراف حيث جاء فيه عن فتح أبي سعيد الجنابي لمدن اقليم البحرين وقراه فقال بعد ذكره لفتح لقطيف والزارة وصفوان والظهران والأحساء وجواثى في العام ٢٨٦ هـ ما هذا نصّه:

«وهجر وكانت أعظم مدن البحرين وكان بها عياش المحاربي وكان أعظمهم عدة وأشدهم شوكة».

والنصّ الثاني هو لشارح ديوان ابن المقرّب وهو نصّ يتحدث عن نفس الحدث أي فتح أبي سعيد الجنابي لمدن البحرين فعند قول ابن المقرّب مخاطباً قومه:

انّي لأخشى أن تلاقوا مثلما
لاقى بنو العَيّاش والعُرَيَانِ
كرهوا الجلاء عن الديار فأهلكوا
بالسيف عن عرَضٍ وبالنيران

علّق الشارح قائلا:

«ويعني بالعَيّاش عَيّاش بن سعيد رئيس بني محارب وكان منزله بالجبل المعروف بالشبعان من جبال هجر وهو في وسطها تحف به أنهارها وبساتينها».

ثم ذكر فتح أبي سعيد لمدينة هجر وحرقه لبعض بني عبد القيس من سكانها فهذان النصّان كما نرى ذكرا حدثاً واحداً هو فتح مدينة هجر من قبل أبي سعيد الجنابي وذكرا زعيماً واحداً لهذه المدينة هو عياش بن سعيد المحاربي فذكر المسعودي أنّ عياشاً هذا كان متحصناً فيها عند محاصرة أبي سعيد له ولقومه في هذه المدينة ويأتي شارح الديوان المقرّبي ليضيف لنا فائدة عظيمة فيوضّح أنّ عياش المحاربي كان يسكن الجبل المعروف بالشبعان من جبال هجر وأنّ منزل العياش كان في وسط مدينة هجر تحف به أنهارها وبساتينها ومن مقارنة هذين النصّين نخلص إلى نتيجة لا تقبل القسمة على اثنين وهي أنّ مدينة هجر كانت تقع بالقرب من جبل الشبعان المعروف الآن باسم جبل القارة الكبير.

مدينة مفقودة

وقبل الخوض في اثبات ما أنا بصدده من كون مدينة «جرّة» هي مدينة هجر أود أن أوضح أنني لست أول من قال بذلك فقد سبق إلى ذلك الباحث الغربي نغيل جروم في بحثه الممتع عن هذه المدينة المفقودة الذي سبق وأشرنا اليه وكذلك الشيخ محمد بن عبد القادر الأنصاري في كتابه تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء القديم والجديد الا أنّ الشيخ قد أخطأ -في نظري- عندما قال أنها تقع شمال غرب جواثي كما كتب الباحث الشيخ عبد الرحمن الملا عن «جرّة» في كتابه تاريخ هجر واعتمد فيه كثيراً على بحث نغيل جروم ويستشف منه أنه يرجح كون «جرّة» هي مدينة هجر وان كان الشيخ الملا لم يجزم جزماً قاطعاً بذلك بدليل ذكره بقية الافتراضات الأخرى التي ذكرها جروم لموضع هذه المدينة كما أن الشيخ الملا لم يتعرض لمدى مطابقة أوصاف «جرّة» لمدينة هجر لأنه لم يكن يعرف بالتحديد موضع مدينة هجر التي تنطبق عليها جميع تلك الأوصاف.

أما الباحثون العرب الآخرون فانّ أغلبهم كان ناقلاً لما كتبه الغربيون حول مدينة جرة التي قلنا أنهم عربوها فأطلقوا عليها اسم الجرهاء أو الجرعاء وبالتالي فقد تراوحت آراؤهم في ترشيح موقع هذه المدينة المفقودة بين الأماكن الأربعة التي ذكرنا قبل قليل ترشيح العلماء الغربيين لها وهي العقير ثاج القطيف والأحساء.

غير أنّ أعجب ما قرأته في تحديد موضع الجرهاء هو ما جاء في البحث الذي كتبه الدكتور توفيق فهد بعنوان «قطر ونواحيها في الجغرافية القديمة: جَرّه والخط» والذي قدمه في مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية الذي انعقد في دولة قطر في ٢١ -٢٨ مارس ١٩٧٧م وأصدرته لجنة تدوين تاريخ قطر في العام نفسه وأوّل خلل يتضح لنا في هذا البحث هو عنوانه حيث يخيل للقارىء أنّ جرّة والخط هما من نواحي قطر بمجرّد قراءته لهذا العنوان الفضفاض مع أنّ واقع الحال يقول أنّ قطر بكاملها هي التي كانت تابعة لمملكة جَرّه والخط أو اقليم البحرين بشكل عام.

ولأنّ المؤتمر منعقدٌ في دولة قطر المشهورة بكرم الضيافة فيبدو أنّ هذا الدكتور أحب أن يكافىء مضيفه وذلك بأنْ يقدم للدولة الحاضنة للمؤتمر هدية من العيار الثقيل فلم يجد أغلى من أنْ يقدم لها «جرّة» مدينة الذهب على طبق من ذهب وأنْ يجعلها في الأراضي القطرية شاء من شاء وأبى من أبى وللتدليل على رأيه الغريب الذي انفرد به فانه راح يطالع الخرائط الموضوعة لدولة قطر والمكتوبة باللغة الإنكليزية!! إلى أنْ وقع نظره على موقع يقع بقرب قرن أبي وائل في قطر ويحمل اسم «امات جرة» -حسب قراءته هو- فكأنه اكتشف الحلقة المفقودة في معرفة موضع هذه المدينة وراح يكتب لنا أوصافاً فردوسية لهذا الموضع من رياض فسيحة ومياه وافرة ونخيل مزهرة وأشجار ناضرة فيه وفي مواضع أخرى ادعى الدكتور أنها تقع بجانبه مثل السكك وروضة الفرس وروضة كظيم التي وصفها جميعاً بالغنى الزراعي والمصيبة أنّ الدكتور لم يرَ هذه المواضع كما اعترف بنفسه ولم يشاهدها وانما رآها في الخريطة الإنكليزية نفسها التي رأى فيها «امات الجرة» فأسبغ عليها من خياله الواسع هذه الأوصاف ولو شاهدها بأمّ عينه وليس بـ«أمّ جرة» لوجدها في واقع الأمر مواضع برية فقيرة جداً من الزرع والضرع ومن أي دلالات على سكن الحيوانات فيها فضلاً عن الانسان؛ والذي لم يعرفه الدكتور الكبير أنه قد أخطأ -بسبب اعتماده على الخرائط المكتوبة بالإنكليزية- في قراءة اسم هذا الموضع ولو أنّ الدكتور رجع إلى الخرائط التي وضعتها دولة قطر نفسها لبلادها لوجد أنّ الموضع الذي أراده أنْ يكون «جرّه» والذي أسماه بـ «امات الجرّة» ما هو الا «أمّ الجَرّة» باضافة لفظة الأم إلى الجرّة والتي يراد بها الاناء الفخاري الذي يحفظ فيه الماء لا غير وهو موضع قَطَريٌّ برّي يقع في سبخة مالحة لا زرع فيها ولا نبت في مكان صحراوي تكثر فيه المسميات المضاف اليها لفظة «أمّ» مثل «أمّ الزّبَد» و«أمّ الجُمَيْليّة» و«أمّ جُويد» و«أمّ جَوْلَق» و«أمّ الجَمَاجِم» ثم انْ تعجب فعجيبٌ ما صنعَ الدكتور عندما أخبرنا في بحثه أنّ روضة الفرس قريبة من قرن أبي وائل و«يا بعد يبرين من باب الفراديس» مع الاعتذار لشاعر العربية المبدع جرير بن الخطفى.

وأفظع من ذلك كله هو ادعاء الدكتور توفيق فهد أنّ الطبري قد ذكر الجرة والخط في تاريخه حسب زعمه وبالرجوع إلى تاريخ الطبري في الموضع الذي أحال اليه الدكتور نجد الطبري يذكر «الخط» و«أردشير خرّة» وهي من أقاليم فارس المعروفة فوهم الدكتور في قراءتها فحرف خرّة إلى جرة وحذف كلمة أردشير وهكذا ينضم الدكتور الباحث إلى زمرة الباحثين الذين يُقعّدُون النصوص على أهوائهم ولَيس العكس حسبما تفرضه أصول البحث العلمي.

وملخص القول فانّ الدكتور توفيق فهد قد وهم كما وهم الكثير غيره من الباحثين في تحديدهم لجرة خارج نطاق واحة الأحساء وسنرى فيما يأتي من البحث أنّ «جرة» ما هي الا مدينة «هجر» المشهورة في تاريخ العرب شهرة لا تقل عن شهرة جرّة عند كتاب الاغريق وأنّ كل الصفات التي أسبغت على الجرهاء هي صفات مدينة هجر بعينها.

الاسم الصحيح

نظراً لأنّ جلّ مصادرنا عن هذه المدينة المفقودة مأخوذة عما كتبه المؤرخون الاغريق والرومان والذين أخذوا -بدورهم- معلوماتهم عنها عن البحارة الاغريق الذين أرسلوا إلى تلك المنطقة أو عن تجار هذه المدينة نفسها فإن احتمال وقوع التحريف والتصحيف واردٌ في السماع من قِبَل مَنْ دَوّن اسم «جرّة» سواء مَن البحارة الاغريق الذين أخذ عنهم المؤرخون الاغريق والرومان أو من قبل هؤلاء المؤرخين أنفسهم أو من قبل من نقل عنهم على اعتبار أنّ معظم كتبهم الأصلية لم تصل الينا الا بعد نسخها أكثر من مرّة وما أكثر التحريف في النَسْخ؛ كما أودّ لفت الانتباه إلى أنّ اللسانين الاغريقي والروماني لا ينطقان بعض الحروف العربية مثل «الخاء» و«العين» فمثلاً «خط» يكتبونها «Khatt» أو «Chatt» و«عَراد» يكتبونها «Arad» وهو أمرٌ آخر زاد الطين بلّة في تحرُّف بعض الأسماء القديمة المعروفة في هذه المنطقة والمضحك في الأمر هو ما صرنا نراه مكتوباً كمسمى لبعض المحلات التجارية في المنطقة مثل محلات وهما اسمان حرّفهما كتاب الاغريق عن «الخَط» الاقليم المعروف و«عراد» الجزيرة المعروفة حتى الآن من جزر البحرين «أوال» فبدلاً من أنْ تُكتب هذه المحلات باسم «الخط» و«عراد» الاسمين الصحيحين كُتبت باسميهما الذين حرفهما كتاب الاغريق وكل ذلك تمشياً مع صرعة التحضر الزائف.

وقبل الخوض في البحث عن موضع «جرّةGerra» أود أن أتوقف قليلاً حول صحة الاسم الملفوظ لها والذي سبب عواراً للباحثين العرب بحيث لم يتوصلوا إلى تسمية موحدة لهذه المدينة بعكس كتاب الاغريق الذين أجمعوا على أنّ اسمها هو «Gerra» في حين تفاوتت ترجمات الاسم عند الباحثين العرب لتأخذ الأشكال التالية «جرّة» «جرهاء» «جرعاء» «قاره» وتشاء الصدف أنّ كل هذه الأشكال باستثناء «جرهاء» يوجد لها نظائر في مسميات المواضع الجغرافية الواقعة في واحة الأحساء فالجَرّة اسم يطلق على مغارة في جبل راس القارة «المشقر الواقع في وسط قرية القارة وهي أكبر مغارات هذا الجبل ولها بابان أحدهما للغرب والآخر للشمال والجرعاء يوجد أكثر من موضع في واحة الأحساء يحمل الاسم نفسه أشهرها الموضع الواقع غرب نخل الشراع وشمال عين الحارة وهو سوق بني تميم في الأحساء القديمة الذي تحدث عنه الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - في المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية دون أن يحدد موضعه المشار اليه وقد رجّح كونه الجرهاء المعنية بالبحث هنا مع أنه لم يَسْبق إلى ذلك بل سبقه اليه المرحوم الأستاذ محمد سعيد المسلم في كتابه ساحل الذهب الأسود وأما القارة التي ألمح بعض الباحثين المستشرقين إلى أنها قد تكون هي الجرهاء فهي قرية أحسائية معروفة سبق وقلنا أن جبل رأس القارة يقع وسطها كما أنّ قارة تطلق أيضاً على موضع في جهة ميناء العقير يعرف بقارة الثمان وعليه فانّ وجود هذه المواضع بهذه المسميات المشابهة للترجمة العربية لكلمة «Gerra» اللاتينية ساهم في زيادة الربكة التي وقع فيها الكتاب العرب وغيرهم في تحديدهم لموضع هذه المدينة العتيدة.

وأما نحن فاننا لن نعوّل كثيراً على أيّ من هذه المسميات سواء ذلك الاسم الذي اتفق عليه كتاب الاغريق «Gerra» أو المسميات «جرّة» «جرهاء» «جرعاء» «قاره» التي اختلف الكتاب العرب في أيها هو الاسم الصحيح لهذه المدينة الأسطورية لأننا لو تركنا العنان لمخيلتنا لوجدنا في واحة الأحساء الكثير من المسميات القريبة من هذا الاسم «Gerra» مثل «جرة» و«جرعا» و«جَيّار» و«قارَه» وبالتالي فاننا سوف نركز بحثنا حول مدينة تقوم على خليج عميق ويبلغ محيطها خمسة أميال وتحيط بها أراض سبخة ولا بأس أنْ يكون اسمها مقارباً في اللفظ لهذا الاسم الاغريقي «Gerra» وعليه فانّ جل ما سوف نعتمد عليه في تحديد هذه المدينة هو بعض الأوصاف الطبوغرافية المقتضبة والوحيدة التي ذكرها كلاً من الجغرافيين «استرابو» و«بطليني» وكذلك على مصورات خريطة بطليموس الذي كتب اسم «Gerra» على خريطته للجزيرة العربية عام ١٥٠م في موضعين الأول كمدينة أو ميناء والثاني كمنطقة ويقعان كلاهما إلى الجنوب من «فيغا» أو تاج قريباً من منتصف الساحل الغربي للخليج الفارسي.

واذا كان «بطليموس» قد صنع خريطته هذه في العام ١٥٠ للميلاد كما سبق وقلنا فهذا يعني أنّ جرة «Gerra» كانت لا زالت محافظة على شهرتها حتى ذلك العام ولكن المؤرخين العرب يروون خبرا عن وفود عدّة قبائل وبطون عربية من داخل الجزيرة العربية إلى اقليم البحرين مشكلين فيه الحلف العربي الشهير الذي عُرف فيما بعد باسم «تنوخ» والذي يرى كوسين دي برسفال أنه تم في عام ١٩٠م أي بعد وضع بطليموس لخريطته بـ٤٠ عاماً ويؤكد المؤرخون العرب أنّ هذا الحلف التنوخي قد قام في مدينة هجر وأنّه قد أجلى النبطيين سكانها الأوائل عنها ويزيد ابن دريد فيذكر أنهم تنخوا بعين هجر وتحالفوا عندها مما يعني أنّ هجر كانت مدينة قائمة ومشهورة في تلك الحقبة أيضاً وقد أثبتُ في كتابي «هجر وقصباتها الثلاث» أنّ عين هجر هي ما يُعرف الآن باسم عين الخسيف الواقعة في جبل رأس القارة «المشقر» والواقع هو الآخر في القارة من الأحساء وأثبت في الكتاب المذكور أيضاً أنّ هجر كانت تقع ملاصقة لجبل الشبعان المعروف الآن باسم جبل القارة؛ قريبة جداً من عينها بحيث لا تتعدى المسافة بين مدينة هجر والعين ٥٠٠ متر فقط ولأنّ بعض الباحثين المستشرقين يرى أنّ الجرهيين ينحدرون من أصل كلداني من بابل وأنهم قد قضي عليهم بواسطة الحلف التنوخي الذي تقدم القول قبل قليل أنهم أجلوا النبط سكان هجر عنها عند احتلالهم لها فانّ كل هذه المؤشرات تدلُ على شيء واحد هو أنّ جرة مدينة الجرهائيين قد سقطت بيد هؤلاء التنوخيين ولأنّ المؤرخين العرب يجمعون على أنّ التنوخيين هؤلاء قد تنخوا بهجر فانّ من نافلة القول أنّ جَرّه ما هي الا هجر نفسها وفيما يلي مزيدٌ من التفصيل.

انّ القول أنّ جرة كانت مستعمرة من قبل كلدانيين من بابل يجعلنا نعيد النظر في الرواية التي مرّت بنا قبل قليل عن كتاب الأغاني عندما ذكر فيها أنّ التنوخيين عندما نزلوا هجر وجدوا بها قوماً من النبط فأجلوهم عنها ونحن نعرف أنّ النبط كانت مساكنهم العراق فهل النبط هؤلاء هم من الكلدانيين الذين استعمروا جرة؟ وبمعنى آخر هل أنّ هؤلاء النبط الذين أجلاهم التنوخيون عام ١٩٠ للميلاد من هجر هم بقايا الكلدانيين سكان جرة؟ فانْ كانت الاجابة نعم فهي تعني أنّ هجر التي نفى الحلف التنوخي النبط عنها هي جرة المذكورة في كتب الاغريق لا شك..

• آثار نادرة